رواية لهذا العدد

ديوان التفتيش

بقلم الكاتب الروائي الشهير طانيوس افندي عبده

١

في صباح يوم من شهر مايو (ايار) سنة ١٤٩٦ كان موكب يدخل من باب مدينة افيلا وهي مدينة محصنة في اسبانيا القديمة

وفي طليعة هذا الموكب مركبة أرخيت الستائر على نوافذها بحرها بغلان وفيها رجل محتجب وراء الستائر كأنه يحاول اخفاء نفسه عن العيون ولكنه كان من كبار القوم كما يظهر فقد كان يحفره عشرون جندياً مدججين بالسلاح ولم يكن أحد يستطيع ان يرى هذا الرجل الا حين يعبث الهواء بالستائر غير أن الناظر اليه يراه غض الصبا متقد العينين تدل نظراته على القلق

وكان حليق شعر الرأس ما خلا خصلة من الشعر كانت على رأسه شبه تاج وهو بملابس الرهبان يلبس ثوباً ابيض فوقه وشاح اسود فكان كل من التقى به وتبين وجهه يستعيذ بالله ويقول بلهجة ملؤها الرعب .

هذا هو سارافينو الفاريز القادم من رومه ليكون نائباً عمومياً في محكمة ديوان التفتيش

كانت اسبانيا في ذلك العهد راضخة تحت احكام ديوان التفتيش الهائل الذي كان يستمد سلطته من البابا — سكنت كنت — فباتي الرعب في قلوب الاسبانيين فكان هذا الديوان يحاكم الناس كل يوم بحجة اتهامهم بالكفر او السحر او فساد الاخلاق من الرجال والنساء فلا يخرجون منه على الاغلب الاعم الا الى المشنقة او المحرقة ومن ساعده التوفيق منهم حكم عليه بالسجن المؤبد والتعذيب او باكراهه على ان يعلق في عنقه صليباً كبيراً او بالوقوف كل يوم عند باب

الكنيسة عاري الظهر فيجلده الاسقف بالسوط امام الناس حتى تسيل دماؤه ولكنهم كانوا يضبطون كل ما يتملكه المتهمون فتتسرب اموالهم الى الرهبان

والويل لمن كان ينطق بكلمة تحمل على الريبة او يقضي عليه نكد الطالع بوشاية اذ يحاكم في هذا الديوان ولا فرق فيه بين وضيع او وجيه وبين غني او فقير فقد كانوا كلهم سواء لدى مظالم ديوان التفتيش

وكان في مدينة من المدن الاسبانية بوليس خفي ينقل الى الديوان اخبار قومها بل اصبح كل فرد من الناس جاسوساً على سواه بحيث لم تبق عائلة لم تفجع بواحد من ابنائها على الاقل وقد حسبوا عدد التضحيات في مدينة سيفيليا وحدها فبلغت في بضعة اعوام مائة الف انسان

وكان رئيس هذا الديوان يدعى توماس دي تودكومان

فكان اسمه مرادفاً للرعب وقد جعل مركز الديوان في افيلا فكان يشرف منها على بلاد الكستيل والاراغون وقد بات شديد الهول لا حد السلطانة حتى ان الملك نفسه لم يكن يجسر على اعتراضه وذلك ان الملك فرديناند الخامس كان ملقباً بالملك الكاثوليكي وكان البابا — سكست كنت — راضياً عنه فلم يجد بداً من الاغضاء مكرها عن اعمال هذا الديوان

وقد كان يود انقاذ اليهود لانه كان يعتمد عليهم في الشؤون المالية ولكن رئيس الديوان لم يكن يحفل بارادته فكان اول بطشه بالاسرائيليين والمغاربة وهم اكثر اهل البلاد في ذلك العهد ثم توسع هذا الديوان في فظائعه حتى لم يسلم منها احد وتسربت اموال هؤلاء المساكين الى خزائن رجال الدين اولئك الذين تسلحوا بالدين في ذلك العصر المظلم وارتكبوا افظع المنكرات باسم الدين فكانوا عاراً وخزياً على الدين

٢

ولنعد الآن الى سانشو بانسا ودون كيشوت داخلا الى المدينة بذلك الموكب الحافل وصل الى الدير فدخل الى احدى غرفه وامر ان يدعوه وحده فجلس على

كرسي وقد وضع رأسه بين يديه واسترسل الى التفكير فلبث زمناً طويلا وهو تائه في معالم التصور وعيناه تفيضان من حين الى حين ببارق يدل على السرور

ثم نهض فجعل يسير ذهاباً واياباً في تلك الغرفة فيناجي نفسه ويقول لقد آن الاوان ولا بد من استئصال الكفر الذي ساد على هذه البلاد فاظهر للحبر الاقدس اني جدير بثقته بي

والآن فقد بات جميع اولئك الزنادقة والسحرة وكل اعوان الابالسة في قبضة يدي فسأطهر الارض من وجودهم وسأخص بنقمتي هؤلاء النساء اللواتي يتسلحن بابتساماتهن الساحرة فيخلبن عقول الرجال ولا ينتزعن من اغوائهم عند حد

نعم فلقد عولت على أن لا اعفو عن واحدة منهن فاكون خدمت الحبر الاقدس بتنفيذ اغراضه وخدمت نفسي بتنفيذ انتقامي .

متيلد . متيلد . انت التي احتقرتني وعبثت بقلبي وهزأت بغرامي ففضلت علي رجلا من اهل الثروة والجاه ! . انك نقضت عهودي وسيتهمك ديوان التفتيش بالفجور والانجار بالجمال وستعاقبين كما يعاقب سواك وسأكون أنا آلة العقاب . . متيلد اني احببتك اصدق حب وتوسلت اليك بدموعي ان تكوني لي زوجة ولكنك هزأت بدموعي وتوهمت انك سحقت قلبي بكبريائك فكان من ذلك انك اكرهتني على اعتزال خدمة الجيش والالتجاء الى الرهبنة فما زلت ارتقي بها بفضل تذكارك حتى اصبحت ذلك القاضي الهائل قاضي ديوان التفتيش . اتيت اليوم اذ قشك الحساب عن الماضي وقد حل الحقد الرهيب مكان الحب العجيب من قلبي

انت عدوتي الآن وان نفسي لا تنبض الا بهذا الحقد الهائل وهو الذي وصل بي الى هذا المنصب الذي لم اسع اليه الا لاجعله آلة للانتقام وقد ادركت الان سؤلي وسوف ترين ما يكون فانت التي اسأت الي والى نفسك

كان سارافينو هذا من اسرة محترمة في بلاد الاسبان ولكنه لم يكن من اهل الثروة فانتظم في بدء امره في سلك الجيش وكان بطلاً شجاعاً وقد احبه رؤساؤه

حتى بات يرجو خير مستقبل في الجندية

فلما بلغ العشرين من العمر عرف فتاة سحره جمالها ودقة بيانها وشعر لاول وهلة انه تقييد بحبها وانه لا مناص له من هذا القيد

وكانت هذه الحسناء تدعى متيلد دي كاسترو وهي ابنة رجل من اواسط البلاد فبدأ تعارفهما في أحد المنازل ثم تعرف بامها وزارها في منزلها ولم يمر على ذلك بضعة ايام حتى باح لها بحبه فلم تجبه على ذلك الا باحمرار وجهها فكاد يجن من فرحه وجعل من ذلك الحين يترقبها ويراها في كل يوم في المتنزهات او في الكنيسة او يقف تحت نوافذ غرفتها فيراها وهي تقف له في المشرف متمالكة باقتفاد الازهار التي كانت في ذلك المشرف

٣

ولم يكن سارافينو يشك بانها تحبه كما يحبها مع انها لم تبح له اباحة صريحة بهذا الحب ولكنه كان يتمثل له هواها في نظراتها وابتسامها فكان يعد نفسه من اسعد البشر وينظر الى المستقبل فيبدو له زاهراً ناضراً كالورود فيعلل نفسه ان يكون في اقرب حين زوجاً لتلك الحسناء التي ملكت فؤاده ولم يكن احب سواها في الوجود

غير ان الرياح جرت لنكد طالعه بما لا تشتهيه سفينة امانيه فان سهام عيني متيلد قد اصابت فؤاد فتى سواه وهو فتى من اكبر نبلاء الاسبان فهو المركيز ابن الدوق دي ديكو اعظم اعيان الاسبانيين بعد الملك فقد تدله بحبها وخطبها الى اهلها

وكان هذا الزواج اقصى ما يطمع به ذووها ولكنهم ترددوا في اجابة سؤله ليقينهم ان اباه الدوق لا يوافق على زواج ولده من فتاة تكاد تكون حقيرة بالقياس الى مقامه الرفيع وهو يريد ان يصاهر به الملوك

غير ان المركيز جعل يلح على اهلها حتى اقنعهم واتفقوا على ان يقترن بها قترانا سريا الى ان يموت ابوه فيشهر زواجها حين لا يبقى من يعارضه فيه

اما سارافينو فانه حين علم بهذا المشروع اصيب بيأس قاتل فانطرح عند قدمي متيلد وجعل يتوسل اليها ان تشفق عليه وعلى تلك الامانى التي لم يكن يعيش الا بها فلم تشفق على دموعه واجابته انها لا تستطيع عصيان اهلها في ما ارادوه لها وحاولت ان تعزيه فسألته ان ينسى هذا الحب الذي لا يسفر الا عن شقائه وشقائها

ولكن هيهات لمن احب ان ينسى حبه الاول ولو نقل فؤاده حيث يشاء من الغرام فاخذ يتذرع ويتوعد حتى بلغ به اليأس انه طلب مبارزة المركيز

غير ان المركيز ابى بل رأى الاحتقار ان يبارز رجلا غير معدود من النبلاء وجرى على عادة الاشراف في ذلك العهد فارسل رجاله فتربصوا له في قارعة الطريق واوسعوه ضربا اليما بالعصي عقابا له من جرأته فاصيب اثر ذلك بمرض شديد بقي فيه بضعة اشهر بين الموت والحياة الى ان تغلب عليه شبابه فلما عادت اليه قواه كان الزواج قد عقد وقضي الامر

وعند ذلك غلت الدماء في عروقه وتحول ذلك الحب الى حقد هائل وبات لا يحلم الا بالانتقام فلم تقتصر نقمته على متيلد بل اصبح ناقما على جميع النساء

وقد اخذ من ذلك العهد يعد عدته للانتقام فاعتزل خدمة الجيش وجمع ما تيسر له جمعه من المال فبرح بلده الى رومه وانتظم في سلك الرهبان

وكان ذلك في عهد اهتمام ديوان التفتيش بمقاومة اعداء الكنيسة والبطش بهم دون رحمة والبحث عن العمال الصالحين لارتكاب هذه الفظائع فاغتنم سارافينو هذه الفرصة وجعل يظهر من التعصب في الدين والغيرة على الكنيسة ما الفت اليه انظار رئيسه فاختاره ليكون النائب العمومي في ديوان التفتيش في مدينة ايفليا

وانما ارسلوه الى هذه المدينة لانها موطنه ولانه يعرف قومها حق العرفان فسار اليها وكان هذا ما يتمناه

٤

كان وصول سارافينو الى افيليا نذير شر وويل على اهلها فقد كانوا يتوهمون

انهم باتوا في مأمن من مظالم الديوان بعد ان بلغ منهم ما بلغ ولكن هذا الديوان الذي لا يرى التاريخ شبيها لمظالمه اخذ يقبض عليهم ويزجهم في غياهب السجون دون ان يعلموا السبب في سجنهم فكان كل من قضي عليه بالمثول امام هذه المحكمة الجائرة يحكم عليه اما بالقتل او السجن المؤبد او التعذيب فكان انين اولئك المنكودين يصل من اعماق السجون الى الشوارع فيزيد الناس رعبا على الرعب

وكان كل ذلك بفضل سارافينو فانه كان يقبل كل وشاية ويصغي الى كل نميمة وكانت نقمته شديدة على النساء فكان يحكم عليهن أحكاما لا تطاق من ذلك انه يأمر بالمرأة فيوضع الحبل في عنقها وليس عليها من الملابس غير القميص ثم تربط في ذيل الحمار وتجر في الشوارع وقد كتب على صدرها بحروف كبيرة أقبح التهم التي تشين النساء

وقد بدأ باضطهاد المغاربة واليهود لا ينقذهم منه تنصرهم فيتهمهم بالزندقة والسحر والخلاعة متذرعا بذلك للحكم عليهم بأفظع الاحكام فبعد سيل الوشايات فلم يكن لمن يريد أن ينتقم من عدو له ان يكتب كلمة الى سارافينو تتضمن الوشاية بهذا العدو فتصبح تلك الوشاية حقيقة ثابتة

وقد فشت عادة هذه الوشايات حتى بات اكثر الناس يستخدمونها في سبيل اغراضهم دون أن تقرعهم ضمائرهم على ما يفعلون بحيث لم يبق للحياة قيمة وباتوا يقتلون النساء كما يجزرون النعاج أو كما يبطشون بالوحوش الضارية فكانت نار المحارق لا تطفأ وأصبح عدد الجلادين لكثرة القتل موازيا لعدد الجنود

وكان يساعده على الانتقام من النساء ان البلاد الاسبانية كانت في ذلك العهد منغمسة في حمأة الرذائل مستوسلة الى المفاسد والشهوات فكان سارافينو يتذرع بتطهير البلاد من هذا الدنس فينتقم من النساء هذا الانتقام

ثم ان رفاق كريستوف كولمب كانوا قد عادوا من البلاد الاميركية التي افتتحوها بداء غريب فسرى منهم الى الاسبان وبات كل من ظهرت عليه اعراض هذا الداء يحكم عليه بالقتل وقد فشى تفشيا عظيما دون أن يعرفوا له دواء فكان

من سلم من نكبة الداء لا يسلم من سيف الجلاد ويكفي ان تظاهر بثرة في وجه المرأة فيحكم عليها بالاحراق

هذا ما كان يأمر به البابا — سكست كنت — وهو يرجو أن يطهر الاخلاق من الفساد والبلاد من الدنس بهذه الصرامة وكان سارافينو يتذرع بها للانتقام من الفساد توصلاً الى الانتقام من تلك التي كان يعبدها فبات يحقد عليها حقداً هائلا يدفعه الى مثل هذا الانتقام

٥

ومع ذلك فان متيلد لم تكن سعيدة بزواجها فانه بعد ان مضى بضعة أشهر من زواجها بالمركيز وصلت الى أبيه الدوق رسالة سرية لم يعرف اسم صاحبها أنبأ فيها بهذا الزواج السري ولكن الزوجين أخفيا انها من سارافينو

وقد مرض الدوق لغمه ولم يعش بعد ذلك غير بضعة أسابيع فأسلم الروح وهو يلعن متيلد وقد أمر ولده أن ينقض هذا الزواج

فلم يعمل المركيز بوصية أبيه ولكن ضميره بات يؤنبه ولا سيما ان جذوة الحب قد خمدت ولم يعد يكترث لمتيلد بعد ان كان يحبها كما يحب نفسه

وقد أدركت من زوجها ذلك النفور فجعلت تبالغ بملاطفته والخضوع له على رجاء أن ترده اليها ولكنها كانت كمن ينفخ في رماد فتنغص عيشها وبات قلبها من ذلك الحين يحدثها بالمصائب

ومما زاد في نكبتها ان حاشية الدوق باتوا يجتنبونها حين علموا بنفور زوجها منها فكانت في ذلك القصر المنيف كأنها سجينة في دير وقد بذلت جهدها في حملهم على حبها فلم تفلح في اسمائهم اليها بل كانوا يتهمونها بالكبرياء والصلف وهي أودع من الحمام بل انهم جعلوا يتوسعون في كيدها حتى انهم اتهموها بأنها ارتكبت الجنايات حتى حملت الدوق على الزواج بها

ولم يكن لتلك المنكودة من سمير غير مربيتها التي جاءت معها الى قصر زوجها وهي امرأة مغربية تدعى ثريا أخذها أهل متيلد وهي صغيرة فنشأت بينهم

حتى بلغت الثامنة عشرة من عمرها فتزوجت جندياً ومات عنها وهي طفل لا يتجاوز عمره شهرين ولم يعش الطفل فجعلت تغذي بابنها متيلد وهي طفلة أيضاً فلم تبرح المنزل منذ ذلك اليوم

وكانت قد تنصرت ولكنها لبثت عرضة للشبهات فجاءوا يتهمون متيلد بالمؤامرة وابيها ثم اتسع نطاق اتهامهم فجعلوا يتهمونها بخيانة زوجها حتى أنهم ذكروا أسماء عشاقها وكان كل ذلك من باب الاختلاق

وفي ذلك الوقت نفسه قطع الذوق كل اتصال وأصيب بمرض عضال خفي أمره على الاطباء فهزل حتى بات كالخيال ولم يعد يستطيع الكلام فانتهز أعداء متيلد هذه الفرصة واتهموها انها هي التي رمته بهذا الداء الوبيل بالاشتراك مع وصيفتها ثريا على رجاء أن ترثه بعد موته ويخلو لها الجو فتسترسل الى أمانيها الفاسدة فكانت تلك المكيدة تقضي معظم أوقاتها باكية نادبة سوء حظها تبتهل الى الله ان ينقذها من مخالب هؤلاء الاعداء

٦

هذا كان موقفها حين جاء سارافينو الى المدينة بصفة نائب عمومي في ديوان التفتيش وقد ارتعدت حين علمت بقدومه وذكرت ما كان بينهما فاشتدت هواجسها . نعم انها لم تكن تخاف أن يسيء اليها أو ينتقم منها فان مركزها العائلي كان يحميها من استبداده حسب اعتقادها ولكنها كانت توجس خيفة من مقابلته اذ لا بد له أن يزورها كما سيزور قصرها بصفته من رجال الدين وتهنئه بقدومه وقد كتبت اليه في ذلك بالنيابة عن زوجها المريض فأجابه لن يزورها ولكنه سيغتنم فرصة قريبة لمقابلتها فجمد الدم في عروقها لهذا الجواب وأيقنت من ذلك العهد انها لم تعد في مأمن فقد كان قلبها يحدثها بمفاجأته نكبة تنقض عليها انقضاض الصاعقة.

وقد اتفق في ليلة بعد ختام مأدبة أدبتها وبعد ان أخذ المدعون يودعونها وينصرفون اذ دنا منها رجل فأخذ بيدها وقال لها همساً :

أيتها الدوقة انك بارعة الجمال فاحذري

ثم انصرف مسرعاً فارتعشت اذ عرفت من صوته انه سارافينو وانه حضر الحفلة متنكراً

وحدث في يوم آخر انها بينما كانت سائرة في رواق يؤدي الى كنيسة القصر انبعثت ستارة وسمعت صوتاً يقول :

اخفضي رأسك أيتها الدوقة قبل أن يسقط

فصاحت صيحة منكرة بصوت مختنق وأوشكت أن يغمى عليها ولكنها تجلدت وكتمت ما جرى لها عن جميع الناس غير انها باتت واثقة من ذلك الحين ان ساعتها قد اقتربت .

وبعد ذلك بقليل دعيت كما دعي كثير من الاعيان الى مشاهدة أعدام ثلاثين امرأة بالخنق والشنق والجلد والاحراق ولم يسعها الامتناع عن حضور هذا المشهد الهائل حذراً من اغضاب أهل ديوان التفتيش وهم عمال الحبر الاقدس فرأت من ضروب الفظاعة ما تقشعر له الابدان ولا سيما حين كانوا يوثقون المرأة ويطرحونها فوق اللهيب . فكان النساء المدعوات يغمى عليهن من هول المشهد الفظيع الى أن انتهت الحفلة واعدم الثلاثون امرأة وهمت مناليد بالانصراف فرأت سارافينو الفاريز خطيبها القديم ينظر اليها ويبتسم لها ابتساماً مفاده سيجيء دورك فكان ذلك أشد ما رأته

V

وعادت الى قصرها وهي منقبضة الصدر واجفة القلب فلم تكد تصل الى منزلها حتى خيل لها ان سارافينو واقف أمامها ينظر اليها تلك النظرة الهائلة فصاحت صيحة رعب وانقلبت مغمياً عليها

وقد اسرع خادماتها الى انجادها فحملنها الى قاعتها وعالجنها حتى استفاقت فجلست على الكرسي ورأت على المائدة غلافاً معنوناً باسمها ومختوماً بخاتم ديوان التفتيش فهلع قلبها من الرعب وفضت ذلك الغلاف بيد ترتجف فاذا به يتضمن

صدور الامر اليها بالمثول أمام محكمة ديوان التفتيش

ولم يكن وقع الصاعقة أشد عليها من وقع هذا الامر فقد كانت تعلم يقيناً انه لا سبيل الى الفرار والنجاة وان الجواسيس والرقباء سيحدقون بها من كل جانب الى اليوم المعين للذهاب الى المحكمة فاذا لم تذهب اليها من تلقاء نفسها أخذوها بالقوة دون أن يجسر أحد على الانتصار لها

وقد خارت قواها وأقامت بقية ليلتها وهي على أشد ما يكون من اليأس الى أن أشرق الصباح فاستلت الى الفضاء وذهبت الى الكنيسة على رجاء أن تتعزى بالصلاة

وفيما هي راكعة تصلي مع المصلين وقف الكاهن في باب الهيكل وصرخ بصوت جهوري :

نحرم متيلد دي كاسترو امرأة الدوق دي ريجو حرماً تاما فاضطرب من في الكنيسة ووقفت المنكردة وقد أيقنت ان هذا الحرم مقدمة الحكم

ولم تكد تقف حتى دنا منها جنديان فقبضا عليها وخرجا بها من الكنيسة فكان الناس يرسمون علامة الصليب على وجوههم حين تمر بهم ويستعيذون بالله لأنها محرومة

وقد سيقت الى السجن فوضعوها في غرفة باردة كئيبة الجدران لا تنفذ أنينها الى الخارج بل كان يعود صداه الى مسمعها فيزدها رعباً على رعب

ولم يكن في هذه القاعة غير قيود مبعثرة من الحديد وكرسي ومائدة ضخمة وسرير ضيق من الخشب بدلا من سريرها الذهبي في قصرها الفخم

وهناك قطعة ضخمة من الخشب كانوا يضعون فوقها رأس المتهم ويقطعونه بالفأس وقد رأت الخشبة ورأت عليها أثراً من الدم المتجمد فكادت تجن من رعبها

وقد أخذوا كل ما كانت تتزين به من الحلى وجردوها من ملابسها الانيقة فالبسوها قميصاً من الخام ووضعوا قيود الحديد في يديها الناعمتين وشدوا وسطها بحبل وربطوا أطرافه الى حلقة في الجدار فأقامت على ذلك بضعة أيام دون أن

يزورها أحد ما خلا السجان الذي كان يأتيها في أوقات معينة بالطعام ثم يقفل عليها الباب فيعود الى السجن ذلك السكون الهائل الذي يشبه سكون القبور

وقد صرفت أيامها الاولى بالبكاء والصلاة ثم أصيبت بعد ذلك بذهول تام فكانت تلبث ساعات متوالية وهي شاخصة الى قبة سجنها تفتكر ولا تدري بماذا تفتكر حتى اذا استفاقت من هذا الذهول أخذت تفتكر بحالتها وتسأل نفسها عن التهمة المتهمة بها وتنظر في طرق الدفاع فتارة تجد نفسها مقضياً عليها فتستسلم الى القضاء وتارة تشتد ببراءتها فترجو عون الله على شدتها وتأمل بالنجاة

وقد لبثت مدة طويلة وهي بين اليأس والرجاء فكان أشد ما يشغلها قلقها من مربيتها نريا فقد أيقنت ان أعداءها الذين لم يحتملوها نفسها لا بد أن يكونوا قبضوا على نريا أيضاً وان أصلها المغربي يساعد قضاتها على اتهامها بما يشاءون

فبينما هي ذات ليلة مضطجعة على سريرها تحدث نفسها بما هي فيه وقد انهك الاضطراب قواها فتح باب سجنها برفق ودخل منه انسان فمشى اليها

وقد اتسعت حدقتاها من الرعب واستوت في سريرها وعقد الخوف لسانها حين رأت على نور المصباح الضعيف وجه ذلك الرجل فلم تستطع أن تقول غير كلمة واحدة وهي سارافينو

فأجابها الرجل بمثل لهجتها قائلا متيلد

ثم مشى اليها بجلال مشي الخيال وقال لها :

نعم أنا محبك القديم الذي خنته وقضيت على أماني حياته . نعم أنا هو سارافينو يعود اليك ويقول لك انك هزأت بي وعبثت بدموعي وسحقت قلبي بكبريائك ولكن الامر قد استحال ولم يعد لك الآن شيء من تلك القوة السابقة فأصبحت ملكاً لي أتصرف بك تصرف السيد بالعبد

انني في ذلك الزمن زمن الحب كنت أبيع الحياة بنظرة من عينيك وافتح السموات والارض بابتسامة من ثغرك وكنت أود أن أجعلك أسعد امرأة في

الوجود كما أنت أجمل امرأة بين النساء ولكنك قضيت على أحلام حياتي واطفأت نور رجائي وتخليت عني لتستبدليني برجل غني شريف كأنما الحب مادة من مواد التجارة فنهجت في ذلك مناهج بنات الهوى اللواتي يبعن أنفسهن بيع السلع فيفوز بهن من يريد

نعم انك آثرت غنياً لا تعرفينه على خطيب كنت تحبينه فلم يكن ثمت فرق بينك وبين بنات الهوى وكنت قدوة للنساء

٩

كانت قضية متياد دي كاسترو ودوقة ريجو منحصرة في ثلاث تهم وهي :

اولا — انها اتفقت مع مربيتها على خديعة الدوق دي ريجو واستعانت عليه بالسحر والاباليسة كي تحمله على الزواج بها على ما بينهما من التباين في المقام

ثانياً — انها خانت زوجها واسترسلت إلى الغرام الفاسد وهو ما تحظره الكنيسة وتناقض أوامر الله

ثالثاً — انها اسقت زوجها شراباً سماً ورمته بداء لا شفاء له بغية قتله والتمتع بثروته من بعده

وقد أضيفت إلى ذلك تهم كثيرة مختلفة نقل أهمية عن التهم الثلاث المتقدمة

وكان من عادة ديوان التفتيش انه يكتفي بشهادة شاهدين لاثبات هذه التهم لافرق بين ان يكون الشاهدان من العدول او من اسافل الناس بل ان اعضاء هذا الديوان نفسه كانوا اذا ارادوا الحكم على متهم ولم يجدوا شاهدين لا يعدمون شهود يبيعون ضمائرهم او يحملهم الخوف على الشهادة بما يريدون

وفوق ذلك فلم يكن في ذلك العهد قوانين منظمة بل كانت الفوضى سائدة في القضاء ولا سيما في ديوان التفتيش الشهير فقد كان قضاته يحكمون بما يوحي اليهم من ذلك المصدر العالي في رومه او بما توعزه اليهم احقادهم واغراضهم الخاصة فمتى قبض على متهم كان الحكم عليه مقرراً منصوصاً قبل المحاكمة بل قبل التهمة

اما متيلد فلما تليت عليها هذه التهمات الثلاثة وقفت منذعرة وصاحت بمل. الرعب قائلة .

يا ظلم يا لابول . اني انكر كل هذه المفتريات

وقد دافعت عن نفسها خير دفاع وقالت ان برائتها تظهر ظهور الشمس في رابعة النهار اذا سألوا زوجها نفسه وجادوا به شاهداً

وقد كانت المنكودة معتمدة على زوجها في انجادها وانقاذ شرفها ولكن زوجها لم يقتصر على انه لم يقل كلمة تؤيد برائتها بل انه طلقها وارسل رسولا الى رومه يلتمس من البابا فسخ عقد الزواج

ذلك ان زوجها كان ضعيف الارادة وقد زاده المرض ضعفاً فوثق باقوال الواشين وكان الاعتقاد بالسحرة متفشيا في ذلك العهد فلم يبق لديه شك بعد ان اتهم ديوان التفتيش امرأته بالسحر انها ساحرة ماكرة فطلقها وتخلى عنها في اشد اوقات ضيقها

اما متيلد فانها حين علمت بما كان من زوجها وهو كل رجائها كرهت الوجود ولم يعد يروق لها غير راحة الموت الابدية فكانت تتمنى قرب تلك الساعة اذ لا مطمع لها بسواها

١٠

اما سارافينو فكان يعلم انه لا ينال منها ما كان يطمع به من الاقرار ولكنه كان يريد ان يغتصب اقرارها كما اغتصبها

ثم انه كان يعلم بان اعتمادها على برائتها يحول دون جميع المكايد التي ينصبها لها فتصر على الانكار ولكنه احتاط لذلك فاراد ان يستعين عليها بمربيتها ثريا وذلك انه امر بالقبض على تلك المغربية وهو يعلم ما بينها من الحب وحاول ان يعذبها امام متيلد تعذيباً مفجعاً بحيث تدرك متيلد الشفقة عليها فتعترف بما يريد ان تعترف به بغية انقاذ مربيتها

وقد صدر امره فجاء بثريا الى غرفة التعذيب وربط الجلاد اصابعها بكلابة من

الحديد ثم جاء بمتيلد فاوقفها بجانبها وجعل يلقي تلك الاسئلة السابقة عليها وهي مصرة على الانكار

وعند ذلك امر الجلاد ان يضغط بالكلابة على اصابع ثريا ففعل وصاحت المنكودة صيحة تقطع القلوب من الاشفاق

ولكن هيهات لتلك القلوب الحجرية أن ترق فقد كانوا يضحكون لصياحها وهي تشتم شتائم بليغة عليها الالم دون ان تدري ما تقول .

الى ان رأى سارافينو انهما لا تعترفان بشيء فامر بتغيير نوع العذاب بانتزاع الاظافر من اصابع تلك المنكودة

وقد فعلوا وغطت متيلد وجهها بيدها اذ لم تطق النظر الى هذا التعذيب الهائل الذي لا يقدم عليه الوحوش .

اما ثريا فانها لم تعد تشعر بألم لانها فقدت صوابها واصيبت بهذيان كهذيان المحموم فجعلت تقول اقوالا منقطعة فتذكر اسم متيلد وتذكر الفاظاً مختلفة عن ديانتها القديمة .

فلما سمع الرهبان تلك الالفاظ هاج ثائر تعصبهم فهجموا على المسكينة هجوم الضواري فمزقوا جلدها تمزيقاً حتى ان بعضهم جعلوا ينهشونها باسنانهم اظهاراً لغيرتهم على الدين اذ لم يكونوا يتقربون من رؤسائهم في ذلك العهد الا بمثل هذا التعصب الممقوت .

ولما رأوا انها اسلمت الروح صلبوها على خشبة وتركوها معلقة ثلاثة ايام على باب السجن اما متيلد فانها كانت قد سقطت مغمياً عليها لفظاعة اولئك الوحوش فضحك سارافينو ضحك الساخر وحملها فالقاها على المقعد التي قتلت عليه مربيتها

١١

وفي اليوم التالي كان موعد محاكمة متيلد الاخيرة فحكم عليها بالاعدام وان يكون اعدامها بان يذهبوا بها وهي حافية القدمين عارية الجسم لا تلبس غير القميص فيجلدها الاسقف في ساحة الاعدام على ملأ من الناس ثم تحرق وهي في قيد الحياة

ذلك بعد ان يتلى على جميع الحضور انها لم تعد امرأة للدوق دي ريجو وانها طلقت منه وباتت من بنات الهوى

اما سارافينو فقد توسط في الأمر لغرض له سوف يظهر واستبدل حكم الاحراق بالاعدام بطريقة اخرى وهي ان يقطع راسها في الغرفة المسجونة فيها

اما متياد فقد تلقت هذا الحكم بارتياح عظيم لانه يريحها من عنائها ولم يبق لها راحة الا بالموت بعد ما لقيته من عذات الاهانات لا سيما بعد ان تخلى عنها جميع الناس حتى زوجها

وقد اخذت تتأهب لهذا الموت وهي لا تملك نفسها عن اظهار سرورها به

فبينما هي ذات ليلة راكعة تصلي اذ فتح باب سجنها الحديدي ودخل منه سارافينو

ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي عرفه القراء اي ذلك الراهب الحقود السفاك بل كان باش الثغر طلق الوجه تدل عيناه على الرفق والدعة

وقد مشى اليها متوانيا فركع امامها وقال لها بصوت يتهدج التمس منك العفو

فدهشت متياد لما رأته ونظرت اليه نظرة رفق تدل على ما فطرت عليه من سلامة النية وقالت له

انك اسأت الي يا سارافينو اساءة لا تغتفر ومع ذلك فاني اغفر لك قبل الموت لاني لا اريد ان القى وجه ربي وانا حاقدة عليك وعسى ان يغفر لك الله ايضاً كما غفرت لك

— نعم اني اسأت اليك كثيرا فكنت وحشا ضاريا بل كنت مجنونا لا عقل لي

ولكنك افقدتني رشادي حتى لم اكن عائشاً الا على رجاء ان انتقم منك انتقاماً هائلا لم تعاقب به النساء من قبل

اما الآن فقد عاد الى قلبي ذلك الحب القديم وشعرت بأني لا استطيع العيش وانت بعيدة عني

كلا انك لا تموتين ايتها الحبيبة لأني لا اريد ان تموتي

متيلد اني لم استبدل حكم الاحراق بحكم الاعدام في غرفتك الا لامهد لك سبيل الفرار فبلم تهرب يا متيلد فاني اعرف هنا منفذاً سرياً لا يعرفه سواي وتعالي معي فاني اذهب الى مكان تأمنين فيه الاخطار تعالي مني اخلع عني هذا الثوب الرهباني الاسود الذي لم البسه الا ليأمني منك وهو الان يحرقني كما يحرق النار .. متيلد .. وقد نهض عند ذلك وبسط ذراعيه لها على رجاء ان تعانقه ولكنها تباعدت عنه نافرة مشمئزة وقالت له

دعني فانك ترعبني

— متيلد

— كلا . . كلا فقد اردت جسمي فنلته واردت حياتي وستنالها في الغد واما ان اعيش مع وحش مثلك فذلك فوق طاقة البشر

وكانت تقول هذا بصوت يرتجف من الذعر والانفة اما سارافينو فقد عادت اليه هيئته العادية فقال لها

ارفضين ؟ أهذه كلمتك الاخيرة

فلم تجبه بشيء بل ركعت وعادت الى الصلاة

وقد سكت سارافينو هنيهة ثم نظر اليها نظرة هائلة وقال

حسنا لكن ما تريدين يا متيلد دي كاسترو فستلقين غدا ولكن عند الجلاد

١٣

وعند فجر اليوم التالي دخل موكب حافل الى السجن الذي كانت فيه متيلد وهي لا تزال عاكفة على الصلاة فانها لم تذق طعم الرقاد

وكان سارافينو في طليعة هذا الموكب يحيط به حراس ديوان التفتيش والقضاة وفريق من الرهبان يحملون الشموع والصلبان ثم الجلاد

وقد تمثل لها الموت حين رأتهم فتورد وجهها وبذلت جهداً عنيفاً كي تكتم ما بها من الخوف إلى النهاية

عند ذلك أخذ أحد الرهبان ورقة وتلا فيها صورة الحكم بالاعدام حتى اذا أتم تلاوتها التفت سارافينو الى متيلد وقال لها

يا متيلد دي كسترو أن ساعتك قد دنت فهل تعترفين بذنوبك التي ثبتت عليك » فلم تجبه ولم تتدان إلى النظر اليه

فاعاد عليها السؤال

ولكنها لم تجبه أيضاً بل التفتت إلى الحاضرين وقالت لهم

اذا كان لديكم ما تريدون أن تسألوني عنه أيضاً فاعهدوا بقوله إلى غير هذا الوحش » فقال لها الرئيس

أتعترفين يا متيلد دي كسترو بجرائمك

قالت ليس لي جرائم فاعترف بها

ولكنها ثبتت عليك بأقوال الشهود

اذا كانت ثابتة وكنتم قد حكمتم علي فلماذا تسألوني

— كي نرتاح ضمائرنا بإقرارك .

ومتى كان لكم ضمائر أيها السفاكون وأنتم في كل يوم تسفكون دماء الابرياء وتفتكون بعباد الله حتى ضجت منكم الارض والسماء

انكم تلبسون هذا الثوب الذي لم يجعل إلا للرفق والرحمة ولكنكم دنستموه بفظائعكم الهائلة وسوف يأتي يوم تقوم عليكم قيامة الناس ويطهرون هذا الثوب الطاهر من أدناسكم المنكرة بل سوف يأتي يوم ينكر الناس الاديان من أجلكم فانكم تدعون مقاومة الكفر والشر وأنتم الذين تثيرون الشر في صدور الناس وتعلمونهم الكفر والالحاد

أما أنا فاني لم اسيء إلى أحد فاعترف باساءتي وسيكون لي موقف بيني وبينكم عند الله .

ذلك الموقف الذي لا تعمل فيه شفاعة ولا ينفع الندم .

والآن فانكم تحاولون اكراهي على الاعتراف بما لم ارتكب فاعلموا انكم لن تنالوا بغيتكم الظالمة . وقد حكمتم علي حكمكم الجائر وأنا متأهبة للموت فتعالوا واقتلوني فان الف موت احب إلى النفوس الطاهرة من العيش بين أمثالكم

فاهتز الحضور لاقوالها وهموا أن يبطشوا بها كما بطشوا بالمغربية غير أن الرئيس حال دون بغيتهم وأشار إلى الجلاد

وعند ذلك دنا الجلاد وأعوانه فاركعوها على الارض ووضعوا عنقها على الخشبة ثم ربطوا رأسها بتلك الخشبة كي لا يتحرك

وأخذ الجلاد الفأس فادارها مرتين وراء رأسها وهوى به على عنقها فانفصل الرأس الجميل عن الجسد وسقط على الارض فقال سارافينو ذلك القول الذي كانوا يقولونه بعد تنفيذ كل حكم

لقد تطهر الدين من كل الفساد والحمد لله

عند ما آذنت الشمس بالمغيب كان جسم متيلد ملقى على مائدة من الخشب في السجن وأمامها رأسها المقطوع

وقد بسطت احدى يديها على صدرها وامتدت اليد الثانية إلى ركبتها فكانت وهي على هذه الحالة شبه نائمة

وكان رأسها بجانبها مغمض العينين مصفر الشفتين ولكن هيأته تدل على الراحة من تلك الآلام وبجانب تلك الجثة الخامدة كان سارافينو جاثياً وقد لبث على ذلك عدة ساعات فلم يعلم من كان يراه أكان يصلي فيستغفر الله عن جريمته أم كان يناجي تلك المرأة التي خلبت عقله بحبها

وفيما هو على ذلك اذا وقف فجأة وجعل يضحك ضحكاً عصبياً ثم جعل يلتفت إلى ما حواليه وقد تبين الذعر من وجهه وأخذ يركض في تلك الغرفة كأنه يهرب من وجه عدو يطارده ثم خرج من الباب راكضاً هائماً على وجهه في الشوارع وهو يصيح مستغيثاً مستنجداً إلى أن طرقه الناس وعرفوه وساروا به

إلى منزله وجاءوه بالاطباء ولكنهم لم يدركوه إلا وقد أصبح جثة من غير روح فقد أصابه جنون حاد أصيب على أثره بسكتة دماغية كانت القاضية عليه فانفرجت أزمة الاسبانيين بموته وارتاحت الاسبانيات من انتقامه فقد كان من أفظع رجال ديوان التفتيش

شذرات

(نقلا عن الجرائد الروسية)

أغنى رجل في العالم

هو بلا مراء هنري فورد مخترع السيارات المعروفة باسمه وكان أبوه مزارعاً يكتري الأراضي ويزرعها ويعيش بجده وكده وعرق جبينه . ولم يكن في استطاعته تعليم ابنه الذي كانت تلوح عليه أمارات النجابة والذكاء ومضاء العزيمة منذ صغره . وكثيراً ما كان يحقد على هذا العالم لوجود الاغنياء الذين يمرحون في حدائق السعادة ولا يعطفون على الفقراء الذين يعيشون الى جانبهم يكابدون المشاق وشظف العيش والعناء . وكان يميل الى المذهب الاشتراكي وينتظر ذلك اليوم الذي توزع فيه الثروة على جميع الافراد فيتساوون في المركز والتعب واعتقد ان هذه خير وسيلة لتوطيد دعائم السلام في العالم . ومن جهة أخرى كان يتمنى ان التجارة المرتكزة على المطامع الاشعبية والاحتكار وابتزاز الاموال واستنزاف الدماء تنصرف الى وجهة أخرى وتعم المصانع جميع أنحاء البلاد يعمل فيها الناس على اختلاف طبقاتهم . ومن معتقداته في صغره : ان انسان هذا الزمان ابتعد كثيراً عن الطبيعة وأصبح لا يهمه غير جمع الثروة من أي طريق وحشو معدته بالمشروبات